قــصص

سيّـدتــي الـشّـاعـرة

محمد بـر و حـو

سيدتي الشاعرة

الطريق، نعبره مرغمين . والمسافة الفاصلة بين المدرسة والفيلاج ، تبعد بأميال كثيرة . مسافة كنّا ، نقدرها بخمسة فراسخ أو ما يزيد.. بعد ما نقطع نصفه . نكون قد أشرفنا على ربوع . تتسع إلى أمداد بعيدة ، نطأ ترابها ، بعد عبور النهر مباشرة ، تتناثر على شساعتها ، مساكن تنتشر عن اليمين وعن الشمال .

نقطع الطريق صعودا ، بين أشجار سامق علو ها ، الى عنان السماء . من الأرز والصفصاف والزيتون .

كان الطريق ممتعا . تفترش مساحة الارتفاع ، الذي كنا نصعده لاهثين ، من مجرى النهر إلى قمة الهضبة . تاركين النهر يتبع مجراه نحو الخنادق . خنادق وشمها في التواءاته ، الصبيب المندفع بقوة ، أيام الشتاء الممطرة والعاصفة.

كم كانت لحظة جميلة ، أحببتها كثيراً ، أن أظل أطل على النهر ، وأنا أصعد الربوة لاهثا ، بين الفينة والأخرى. أتملى بجداول الماء ، التي تنساب صافية ، محاذية ، لجنبات الربوع ، الممتدة على طوله الملتوي ..

وذات صباح ، من أيام الخريف الرطبة ، وأنا أطوي كعادتي ، طريق الهضبة . تناهى إلى سمعي فجأة ، جدال . على شكل ذبذبات موسيقية . كانت سنفونية لأصوات نسائية . صوت امرأة ، تتقاذفه الرياح ، من وراء الربوة، التي كنت أكاد أن أطل من علوها ، على وجه الطريق .

لم أتبين مصدر الأصوات أول الأمر، لكن بتتابع الخطوات ، بدأت ألتحم أكثر في هيجانها . وشيئا فشيئا.. بدت لي على مسافة غير بعيدة ، امرأتان منتصبتان ، اتخذت كل منهما مقاما لها ، على ربوتين متقابلتين ، تطلان على الطريق مباشرة . ذاك الطريق الذي كنت أسلكه مرة كل أسبوع.

كانت إحدى المرأتين ، قد اتخذت مكانا لها ، فوق الربوة ، على الجهة الشرقية من الطريق ، حيث ظلّت الأخرى تقابلها ، في الجهة الغربية منه.

لم أتوقع أبدا ، أن يكون ذاك الشجار ، شجارهما ، حامي الوطيس ، على ذاك النحو . شجار يشخص من كلماته، ملحمة بطولية ، سلاحها الكلمات ، وخطتها نغمات ، آتية من أصوات أنثويّة نسائية . يتردد صداها في قاع النهر ، كنداء الزمان..

تحت شجرة زيتون مثمرة ، اتخذت مكانا لي ، قبعت به ، أستفيئ بظلها ولأتتبع سجال هذه الحرب الكلامية، ومراحل تطورها . عراك نسوة ، ذهبت السنون بكل أريحتهن ، وضيعت الأيام رقّتهن . سجال في حضرة الأزواج . الأول يعتل بمعول، يشقّ به الأرض شقاً ، بضرباته القوية المتتالية . والآخر ينسج حبالا من العزف . يتناسق التواءها ومهارة خفّة حركات يديه اليسرى .. القويتين والخشينتين .

يستمعان دون أن ينطقا .. صامتان .. جامدان كصنمين . وحده صوت المرأتين ، هو مايحرك سكون النهر ، هو ما كان يجلجل في شساعة الخلاء .

إنه سجال أدبي رائق . يشدك لتصيخ السمع ، لشذراته المقفاة بلحن الحياة . أدركت ذلك وأنا أنصت إليهما . ثم وأنا أغادر المكان ، لاهيا ، ساهيا عن حاجاتي ، التي سجلتها في ذاكرتي المتعبة ..

يتردد صدى صوت المرأة الأولى شتماً وقدحا .. بقافية . تصاحبها نغمات موسيقية ، متناوبة . شنّفت سمعي وأطربت أحاسيسي، واندهشت لها روحي أيما اندهاش، لتظل الثانية صامتة ، تنصت في سكون . تنظر إلى الأفق البعيد بشموخ وبزهو وانتشاء .. وكأنها تقرأ طالع اليوم ، لتعد لحربها خطة الإقلاع . ولاياتي ردها إلا بعد انتهاء الأولى.. واستخلاصها مما في جعبتها ، من كلمات .. فتسجع الثانية ، بقافية تغاير قافية المرأة الأولى . وبكلمات ترقى لتتخطى معاني كلماتها . تتراقص الكلمات والنغمات ، وضفة النهر تحضننا ، ومجراه يردّدها أسراراً وبوحا ، في ثنايا أدهر الزمن.. المنتفض من حر الشمس ..

تظل المرأتان كذلك لمدة .. حتى تحس كل منهما ، أن نفسها قد ارتوت ، من عناد الأخرى ، فتخبو الأصوات، ويخف السّجال ويجف ، وكأنه نهر تشبعت أتربته بلهب

الحر . وتتوادعان . وتقفل كل منهما باب بيتها عليها ، في وجه الأخرى . ولا يمكن أن يحدث ذلك ، إلا وغروب الشمس ، ينسج خيوط المساء ، وهو يكاد ينتهي ، على أفق المغيب .

ولكم أثارني هذا السّجال الغريب ، و لم أكن أتوقع ، حدوثه في يوم ما ، من أيام حياتي.. تابعت طريقي نحو الفيلاج ، و مضيت ، و أنا أفكر بعمق ، في أحدى المرأتين . تلك المرأة ، التي كانت تحتل الجهة الشرقية من الطريق ، وفي ذاك المشهد المثير . لا أنكر أنه مشهد ، طبع في نفسي إحساسا بالاعتزاز ، وحب المرأة واحترامها . مشهد لطالما استهواني كثيرا ، وأنا أركب صورة وجهها ، وقسماته التي طبع الزمان عليه أخاديده . فزادها وقارا ، وصلابة وعزة .. وكم أثارتني تلك الطريقة الحوارية المنمّقة . التي ظل الحوار يدور فيها بينهما ، والذي حبك ذاك السّجال ، الذي دفن في نفسي ، أريج الحياة وحب المرأة .

خمنت أنها أمسية شعرية . لشاعرتين ، ترددان فيها ما جادت به قريحتهما . استحسنت تلك الطريقة .

وكنت كلما مررت قرب بيتها ، طوال مدة إقامتي هناك ، أقف للحظة ، أمام بابه المغلق ، استرجع فيها ، صدى كلماتها المتناثرة ، عبر فضاء الوادي الموحش ، كما هي بيوت القرية . وأنا أتأمل أبوابها . وبيت المرأة ، وأتساءل في صمت . أهي فطرة شاعرات ، يوظفن إبداعهن وقت الغضب..؟ أم هي عفويتهن ، تحرك في نفوسهن خيوط الإبداع ، فتتفجر طاقة السّب والشّتم ، شعرا وكلمات وإبداعا . ليبدعن الأحسن والأجود.!؟

كنت أفعل ذلك كل مرّة ،كلما مررت من هناك . فأحاول أن أستقرئ جوابه ، من وجه إحدى المرأتين ، وأنا ألقاها في طريق العودة إلى القرية .

لا أنكر ، أني كلما صادفتها ، كنت ودون أن تشعر بي ، أبجّلها تبجيلا.. وأقدرها تقديرا.. وأنا القي عليها تحيّة السّلام، في همس فأقول :

- سلام عليك سيّدتي الشاعرة..

***

رحلة قنص

الحنين يكبر في نفوس الثلاثة، مرّت شهور ستة، و لم يستمعوا فيها لثغاء الخراف. ولا لهديل الحمام، كانت مدّة طويلة بالنسبة لهم.

الربوة التي يفترشون حشاشها، منذ الصباح الباكر. تطل بشموخ على السهول المحاذية للوادي. ترتفع رؤوس سنابلها، تنظر في اشتهاء إلى رقصة الربيع، على الربوع المرصعة بأشجار الصنوبر والعرعار. وناي الرّعاة يشدو خلف التلال.

الثلاثة، يجلسون في احتماء صخرة، تنتصب حدا فاصلا لمعبر النهر. تكلّله زهور القرنفل، وشقائق النعمان، تتمايل راقصة على نسيم الصباح. وطائر المستوون يغرّد بصوته الجميل. الكوخ الوحيد القابع هناك، على مسافة قريبة من مكان جلوسهم. هو ما يتّخذونه مسكنا لهم. منذ أن حلّوا بهذه القرية النّائية والقابعة في جوف جبال الريف. يندس بين أشجار باسقة، ويطل على خلجان مائية، تجري دون توقف.

كل الأكواخ الأخرى، توجد وراء التّلال. وحده كوخهم، أقيم هنا في هذا المكان. يضم تحت سقفه أجسادهم الثلاثة. ويحتمون فيه من لسع البرد، وقيض الحرّ.

شخشخة البنادق، تنطلق، تصل أسماعهم متقطّعة. فبدوا ينظرون في وجوه بعضهم البعض. وكانت أول طلقة دوت، تعلن عن بدء رحلة القنص. وبها سيكون اليوم، هو أول يوم يفتتح فيه موسم الصّيد. إن هذا الصّباح سيكون مخصصا لاقتناص الختزير البري. والذي سيفقد الكثير منه مرقده في هذه الغابة. بطلقة واحدة وبتصويب دقيق، سيصبح وليمة لعشاق أنواع هذه اللّحوم.

الثلاثة يعشقون طقوس القنص، لكنهم كانوا لا يزالون في مكانهم. إنهم يفتقرون لمقوّمات القنص. ليس لأحدهم بندقية، ولا كلب صّيد. لكنهم رغم ذلك قرّروا أن يشاركوا في هذه الرّحلة الممتعة. إنّهم يعتبرونها حفلا فنتاستيكيا. لابد لهم أن يشاركوا فيه. بعد لحظات، كانوا يندسون بين جموع (الحيّاحة) وهم يردّدون صيحاتهم: هيا..هيا..هيا..

الصّيحات المتكرّرة، يصاحبها قرع الطّبول.الخنادق الوعرة تكثر داخل الغابة. والقناصة يتمركزون في أماكن يفترض أنها ممرّات تعبرها الخنازير الهاربة. الطّلقات المتتالية، تحدث في نفوس الثلاثة رعبا وفزعا. كانت تسمع قريبةّ منهم. وهم يتيهون في شعاب الغابة الشائكة. (الحيّاحة) يصدرون ضجيجا، والطّلقات تتوالى دون توقّف. وهذا مؤشرعلى أن الخنازير قد تحرّكت من مراقدها. هاربة ومذعورة. ودون اتجاه محدّد. نحو الثلاثة كان خنزير جريح يتجه بأقصى سرعته. إنه الآن خطير للغاية. دبّ الذعر والخوف في نفوسهم. فلو اعترض أحدهم طريقه، لدهوره بضربة قاتلة. تفرّق الثلاثة هاربين، كلّ في اتجاه. يبحثون عن مكان يحتمون فيه.

يتيه كلّ واحد منهم وحيداً، وسط الغابة. في وحشة الخلاء. وزمن التّيه. بين الحشائش الشائكة. يتخطّاها دون اكتراث. الطريق الذي يوصل إلى الكوخ، يضيع منهم. يسلكون طرقاً لا تؤدي إلا لمتاهات الغابة الغير المتناهية. لقد أضاعوا طريق العودة. ووجد كل منهم نفسه في مكان، لا يوجد به سواه. دون اتجاه، كانوا يهيمون وسط الغابة. يبحثون عن مخرج، يقطعون المسافات وقد أخذ التّعب منهم كلّ قواهم. يكرّرون البحث ويكرّرون. ولا يستنجدون.

المساء أضحى ينشر ظلاله على الغابة. وقد بدا وكأنه يتهيّأ ليلبس ثوب الظلام. وعوي الذئاب بدا يسمع داخل الغابة. لكن الثلاثة، لا أثر لهم. ولم يكن قد وصل الكوخ أي منهم. ولم يعد يسمع صوت (الحياحة) ولا طلقات البنادق. صرخات وحيدة، تدوي صدى على قمم الجبال المحاذية للغابة.

يترل اللّيل ويحلّ الظلام. التعب يجهدهم. أحدهم يحتمي بشجرة صفصاف باسقة، حيث سيقضي ليله هناك. راكنا فوق جذوعها السّائبة. فعل ذلك وهو يحسّ باللّيل يداهمه.

يحكي للآخر الذي ينصت إليه بانتباه. بعد بزوغ الفجر يظلّ يجري ويجري بين خندقين، حتى وصل الطريق الذي تبعه ليصل إلى الكوخ. الذي بات فيه الثاني وحيدا في سهاد، جريح الفؤاد. يفكّر في رفيقيه. وفي عودتهما.

الاثنان يتحاكيان ، وعلامة الحسرة تبدو على وجه كل منهما. ما يزال الثّالث في غياهب الغابة مفقوداً. أسيراً لشعابها ووحوشها. وشمس اليوم قد مالت نحو المغيب. والواجب يفرض عليهما أن يبحثا عنه بكل جدّ وعزيمة. كيف سيتم ذلك..؟ لقد تذكرا شعاب الغابة ومسالكها الوعرة. لكنهما عازمان على أن يبحثا عن الثّالث. ويقررا ن أن لا يعودا أبداً، إلا وهم جميعاً معاً.

في صباح اليوم التالي، خرج الاثنان، وأهل القرية للبحث عن الثّالث، وقد استعانوا هذه المرّة، بكلاب مدربة. وفي طريق بحثهما ، كانا يسألان بعض الأسئلة. ويستفسران عن السبب الذي عاق الثالث عن العودة. هل يكون قد أضاع طريق العودة وهو الآن تائه في مكان ما..؟ أم يكون قد دهوره خترير قاتل. فيكون الآن يترف دما.

ظلا يبحثان طوال النّهار. وعند اقتراب المغيب، كان اليأس قد أخذ كل أملهما. و انطفأ أمل العثور عليه في نفسيهما الواهنتين. قررا العودة، عبر مسالك لم يسلكاها عند مجيئهما إلى الغابة. كانت الهضبة الأخيرة التي تحوي المسلك، يكثر على جنباتها عليق التوت البريّ. وفجأة وفي غفلة من الجميع. كانت الكلاب تنطلق بأقصى سرعتها، نحو تّرعة، عند منحدر الهضبة. وقفت الكلاب تنبح نباحاً شديداً. الترعة يغطّيها عليق التوت، والكلاب تحوم حولها. والرفيقان مسرعان يتقدّمان إليها.

كان ذاك الشّبح المعلّق، هو ثالثهما. معلقا من ملابسه الممزّقة، ورصاصة تخترق رأسه. وقطرات الدّم لا تزال تترف منه؛ قطرات قليلة. نقل إلى الكوخ، ودفن على ربوة قريبة منه.

وذات صباح من أيام الآحاد الخريفية. كان الاثنان يجلسان قرب الصخرة، القريبة من الكوخ، وهما يسمعان شخشخة البنادق تدوي وسط الغابة، كانا يحملقان إلى قبر رفيقهما. وظلا كذلك إلى مغيب الشمس. كما ظلّت حجرة الدرس الثالثة مغلقة، طيلة الشّهور المتبقية من السّنة الدراسية.

***

رقصة الغجر

يحلّ المساء، حيث يبدأ تجواله، بين الحشائش والأعشاب الكثيفة واليابسة. يستقرّ به المقام على ربوة، تطل على البحر مباشرة. يجلس فترتمي نظراته، على شساعة اليمّ. تحاول احتواءه في خنوع. يبتسم وهو يسمع خشخشة الأوراق والأعواد المتساقطة على الأرض. تدوسها خطى لجماعة من الأولاد والبنات. ثم ما لبثوا أن يصلوا المكان الذي يحتويه. يحدّق فيهم الواحد تلوى الآخر. الجماعة تقترب منه بكل عناصرها. يحلّقون حوله. يجد نفسه وسطهم.

يخرج كلّ آلته. يضعها بين يديه. إنها آلات موسيقية. إيقاع وناي وقيثارة. يسوي كلا منهم نوتته. تتهيّأ الجماعة، البنات يلبسن الفساتين المزركشة. ذات ألوان فاقعة، مختلفة ومتداخلة. تشبه فساتين غجر بلاد الأندلس. في لحظة، كان يجد نفسه أمام كرنفال. لم يكن يتوقع أن يصادفه في هذا المكان.

تبدأ الجماعة عزفها بمواويل. ثم يبدأ العزف المصاحب للغناء. حيث يظلّ هو جاثياً، يرقب ذلك في انبهار واندهاش. ينقر صاحب القيثارة على أوتارها نغمات موسيقية رائعة.تسلبه عقله. يصاحبها حفيف أوراق تنحدر نحو الخندق. ثم ينطلق صوت أحدهم بأغنية. بدا يتمايل على أنغامها. البنات تتهيأن في عجل، تندفع إحداهن وسط الجماعة، ترقص بحركات كحورية بحرية. وترد بغناء، كأنه شدو البلابل. في رقصة تضرب بيدها ورجلها. وتدور على نغمات متناسقة، تنساب لسمعه. ينهمك الجميع في أداء الأغنية. يعزفون وينشدون ويرقصون.

دون سابق إشعار، يتوسط الجماعة، يصفق ويرد على الإيقاع الموسيقيّ. ثم يبدأ في مراقصة الغجرية، هكذا يسميها، وهو يراقصها بمهارة، أبهرت كلّ العازفين. يردد بصوت مبحوح، و بنشوة زائدة لم يعتدها.

غجرية..غجرية.. أنت..راقصيني..

تندفع البنات الأخريات. تشاركنه والغجرية الرقص. على الإيقاع والصيحات، التي كانت تحدثها الجماعة. تستمرّ الرقصات وتتناوب على مراقصته الواحدة تلوى الأخرى.

فجأة يثير منظر الغروب شجونه. وهو يتجه بنظره إلى قرص الشمس، الذي كان يتحجّب شيئا فشيئا في عمق البحر. يقف متأملاً المشهد. الشمس تتستّر بلحاف البحر، فيبتلع قرصها وتغيب. تندهش نفسه، وكأنه يشاهد ذلك لأول مرّة. لقد سبق أن رأى ذلك مرارا. لكن هذه المرّة، إحساس غريب كان يناديه في أعماقه. أهو إحساس باللّذة والمتعة..؟ التي تقارب الانتهاء. حيث انتهى قرص الشمس وراء البحر..؟ أم شعور بالخيبة الذي حرّك دواخله ويجثم اللّحظة على أنفاسه..؟

يستفيق من لذّته ويستبين له، بأنّه لم يعد يصلح لما قام به وفعله. ليس هو الآن في سنّ الجماعة حتى يحذو حذوهم. كان عليه أن لا يراقص الغجريّة. ولا أن يغني مع الجماعة. لقد غاب عنه أن الشيب يطلي شعره بالبياض والتجاعيد توشم على وجهه السنون.

يجلس قبالة البحر، يتأمل السّواد القاتم، الذي كان يلف البحر. والسكون الذي كان قد عمّه قبل قليل. مشهد كان يقرأ فيه من كتاب حياته. الجماعة قد باتت تنصرف في هدوء. حيث يغيب هو في تأمّله وتفكيره. و لم يعد يدرك ما يدور حوله، ولا يحس بما يتراءى أمامه. يغيب في تفكيره، كما غاب قرص الشمس في الأفق. وحلّ الظّلام وسكن المكان.

في صباح اليوم التالي، كانت جوقة من النّاس تحلّقُ حول رجل مسن، وجدوه جثة هامدة. على تلك الرّبوة التي كان يأتي إليها كلّ مساء.

بين الجماعة،كنت. وحين انصرف الجميع، استخفيت، أتأمّل مشهد الغروب، إلى أن انتهى قرص الشّمس، وراء البحر. يبتلعه، كما ابتلع الموت حياة ذاك العجوز.

الماعز الثريّة

لم أكن أقصد وأنا أهمّ لأن أجرّب الراميّ الذي كنت قد أكملت نسجه اللّحظة. والى أي مدى يمكنني أن أطوّح بالحجر الذي يحمله. و لم تكن في نيّتي أن أزعج ماعز" بيبي،" ولا نويت أن الحق بها أذى. وأنا ألوح بالحجر الذي كان يحويه. داخل الزّريبة. وكان حجراً متوسّطاً.

كانت ماعز" بيبي" في ذلك الحين، في لحظة استرخاء. اعتادت أن تعود من المراعي، قبل مغيب الشّمس بقليل، في مساءات الصّيف الحارة. كانت في وهلة تفصل بين وصولها الزريبة وحلبها. لقد عادت لتوها وقد شبعت من مراعي سمسة وجبل درسه. كنت وأنا أقوم برميها بالحجارة، في غفلة من الرّاعي" بيبي." أحاول أن أختبر مدى استنفارها إن هي تعرّضت لهجمة ذئب جائع، تربّص بها أو بإحدى جدياتها.

كنت أدرك يقينا، أن خروجها كلّ صباح، في وقت مبكّر هي رحلة نحو المراعي. والكلبان يرافقان القطيع في زهو. هما كلبان مدرّبان على تتبّع القطيع من الزريبة إلى المراعي. توأمان. بلون أسود يختلط بالرّمادي الفاتح.عند القدمين وعلى الأذنين المتدليين. كانا حريصين كلّ الحرص، على أن يعود القطيع سالما كلّ مساء، من المراعي إلى الزّريبة الموجودة بدرب أحمّاد داخل حي باب النّوادر. وكنت أدرك بأن زرّوقة ، تلك المعزة الكبيرة والضخمة، هي قائد القطيع، تتقدمه. لم تكن تحمل على رأسها قرونا. لكنها كانت تحمل في عنقها ناقوسا من النّحاس الصقيل. يربط بقطعة سميكة من الجلد الأسود النّاعم.

إنّ زروقة هي أكبر ماعز القطيع سنّا وحجما. يتجاوز عمرها التسع سنوات. ولها أثداء كبيرة، تكاد تلامس بها الأرض. لذا، فقد كانت تدثّرها قطع من الثّوب، خيطت على قدّها. وذاك اللّون الأزرق الفاتح، الصافي واللامع لفروها الخفيفة. المائل إلى الزّرقة، والذي يملأ العين جمالا والنّفس بهجة. وأنت تتطلّع لبهاء جمالها الفاتن، وهي تعبر طريق الحيّ نحو الزّريبة. في مساء برتقالي من مساءات الربيع البهية. وذاك القطيع، الذي يتبعها

في خنوع. تقوّم من يزيغ عن خط الطّريق المرسوم قي مخيّلتها. أو أن يتخطّاها في تحدّ ولهو.

القطيع يسير، وهو يستكين كلّ مرّة إلى حركاتها، وكأنه بذلك يدرك بأن زروقة هي أصل وجوده. كما تدرك هي بأن القطيع كلّه من صلبها.

"بيبي" ذاك الرّاعي العفيف، القادم من بلاد الأندلس. من أرياف اشبيلية. بقبّعته الجلدية، وقربة هي الأخرى من جلد الماعز التي تعلّق على كتفه الأيسر. استوطنت عائلته تطوان، واستقرّت بها، بعد تقاعد جدّه من الجيش الإسباني. كان نزوحه إلى سبته أوّل الأمر، وهو جندي في كتيبة عسكرية تابعة للجيش الإسباني.. "البيدو" ابنه "وكلارا" زوجة ابنه، وحفيده "بيبي ."

ورث "بيبي" مهنة الرّعي عن أبيه "البيدرو." بعد نزوحهم إلى تطوان حيث استهوته مراعيها. فاستطاب بهم المقام فيها. ليستقرّ وعائلته، في بيت بحومة باب النوادر، بدرب أحماد. لقد عمّروه أكثر من خمسين سنة.

امتهن جدّه مهنة بيع الخبز، بدكان صغير، كان يوجد في مدخل الدرب، الذي كانت توجد به زريبة ماعزهم. والبيت الذي كانوا يسكنونه.

لم يجرؤ أحد، على مسّ ماعز " بيبي" بسوء. فهي ماعز ثريّة. كلّ سكان الحي يدركون ذلك ويعرفونه. من حليبها يطعم سكان باب النوادر وكل سكان الأحياء المجاورة له. و لم يكن ثمن اللّتر من الحليب يتجاوز خمسون سنتيما. الحليب الجيد والطازج. كان كلّ سكان الحي يدركون ذلك، ويتهافتون على اقتنائه بلهفة.

عند كلّ مساء، وقت مغيب الشّمس، تعود الماعز من المراعي، تلك المراعي الممتدّة من جبل درسه إلى سهول سمسة. وذلك الحشد من النّاس، المتدفّق على باب الدرب، وقرب باب الزريبة. حين يأخذ كلا دوره. ينتظرون رجوعها. وهم يصطفّون على طول الدرب، وقد حمل كل واحد منهم آنية من التراب أو القش أو المعدن. آنيات ستملأ بعد قليل، بحليب ماعز" بيبي." الحليب النافع والصحيّ. الجميع يدركون ذلك يقينا، كما

يدركون بأن مراعي سمسة وجبل درسة، هي من أغنى مراعي المدينة. إن اختلاف أنواع العشب والكلأ المتوفر فيها، كان يعطي لحليب ماعز" بيبي " لذة رائعة ونكهة زكية.
الناقوس النّحاسي المعلّق عل عنق زروقة، الموشى بنمنمات تحكي عن آثار العرب، ووجودهم ببلاد الأندلس. وذلك الشّعاع المنعكس على صفائه البلوريّ، الذي يغريك ويجذبك. فيجعلك تتذكّر بإلحاح، تلك المسافة الفاصلة بين الضفتين. حيث يجعلك تدرك وتجزم يقينا، بأن حضارة العرب، تمتدّ جذورها، إلى ما وراء البحر. إلى ربوع الجزيرة. وذاك اليعار الصادر من داخل الزّريبة، يجعلك تنصت بتمعّن إلى وقع الزمان. وأنت تسمع قطرات الحليب تنصب في الطست، من أثداء الماعز مباشرة. فتملأها عن آخرها، ليحدث ذلك الصّوت الخفيف، وقد علت رغوة غنية بالقشدة فم الطست. حلاوة في فم كل الواقفين بباب الزريبة.
وذات أصيل، كانت عودة زرّوقة قائد القطيع، عودة ميمونة. لها نكهة حلوة، وبهاء أخاذ. وإحساس دفين يسكن نفسي، بالفرحة وهي تقطع الطريق نحو الزّريبة. كانت تلتفت كلّ مرّة. وكأنها بذلك تذكّر ماعزاتها الثلاث التي لم يمر على ولادتها غير ساعات قليلة. بانتهاء الرّحلة.
كان" بيبي " الرّاعي العجوز، يتقدم القطيع وهو يحمل الصّغيرات الثلاث بين يديه. التي هي الأخرى كانت تنظر إلى أمها بشوق واندهاش. فتصدر يعارا خافتا، ترد عليه أمهم زروقة. وهي تتبع " بيبي " وتشخص إلى صغيراتها. ثم إليه. وكأنها بذلك تحثه على أن يسرع الخطى، وأن يزيد من حرصه على صغارها الضّعيفات.
إن العودة المبكرة للقطيع، في ذاك الأصيل الربيعي. وقد انضافت إليه معزات أخرى. من صلب زروقة. وذاك يعني أنّ حليبها سيحجب عن أهل الحي لمدّة. وسيترك لصغارها.
كان الجميع يدركون ذلك، لكنهم كانوا راضين عن زروقة ومعزاتها الثّلاث.
تعود الماعز مساء. وأثداؤها الممتلئة بالحليب، تتدلى. وقد امتلأت بحليب طازج. سيوزّع بعد قليل على جموع المنتظرين بباب الزّريبة. والكلبان المرافقان للقطيع يسيران وراءه في

حذر. فرحة تغمرني وأنا أسمع دقّات النّاقوس النّحاسي المعلّق على عنق زروقة. ثم وأنا أشاهد القطيع يقترب منا، فيمر بجانبنا، في اتجاه الزريبة فيدخل من بابها الواسع. المركب من الخشب المشقوق. يترك مفتوحا ولا يغلق ابدآ حتى تدخل آخر معزة. نشوة الفرح تغمرني وتمدّني أملا. وتمنحني ثقة بأن ماعز " بيبي " هي ماعزنا جميعا. يكون القطيع قد بدأ ينسل إلى داخل الزريبة. وأكون أنا قد تعلّقت بتلابيب أختي حبيبة. التي كانت تكبرني بسبع سنوات وهي تستعد لملء الطست بحصتنا من الحليب. وقد أخذنا دورنا أمام باب الزّريبة المفتوح. والذي نظل من ورائه نراقب حركة الماعز داخل الزريبة. و لم يكن" بيبي " يسمح لأحد بأن يتخطى بابها.

عند باب الزريبة، يكون" بيبي " قد أخذ مكانه. حيث يظل واقفا في حزم يراقب دخول الماعز. ولا يقفله إلا بعد دخول آخر معزة من ماعزه. كانت معزة بهيمة، ذات قرون صغيرة.

إن نصف القطيع هو من صلب زروقة. الحركات المتوازنة التي تسير بها داخل الحيّ، وضربات النّاقوس المتكرّرة المعلّق على عنقها. وهي تتقدّمه في طريقها إلى الزريبة، كانت تثبت بأنها مرشد القطيع. مرشد يعزف لحن الخلود لأولاده وأحفاده. و " بيبي " الرّاعي العجوز، الذي يتجاوز السّبعين. يتبعه. وكلباه من الوراء. اعتاد أن يحمل على كتفه قربا من الجلد. يضع فيه ما يحتاج من أكل له ولكلبيه الوفيين. اللذين اعتادا أن يرافقاه بكل وفاء إلى المراعي، منذ كانا صغيرين. فيسير واحد عن يمينه والآخر عن يساره. أتى بهما جدّه من قريته في بلاد الأندلس. بعدما أحيل عل التقاعد من الجيش، اشترى زريبة بحومة باب النّوادر بدرب أحماد. حيث امتهن ابنه" البيد رو" مهنة الرّعي في حين امتهن هو بيع الخبز في دكان قريب من الدرب الذي كان يسكنه. وقد ظلّ كذلك مدّة طويلة، إلى أن مات. تفرّغ " البيدور" أبو " بيبي" إلى رعي الماعز وتربيتها، هذه المهنة التي سيرثها عنه ابنه.

المساء يقترب وعودة القطيع باتت وشيكة. ورائحة الرّوث باتت تصل أنوفنا، نشمّها مع نسمات أواخر أيام الرّبيع المعتدل. وسكون يلفّ اللحظة. والقطيع يقطع طريقه نحو الزّريبة، لم تكن دقّات النّاقوس تسمع. أسرعت في ذهول وحيرة، وأنا أبحث عن زرّوقة في مقدّمة القطيع. كنت أبحث عنها وقد عرتني لحظة من القلق. وأنا أحاول أن اعرف ما سرّ صمت النّاقوس.. ؟.

يصل القطيع باب الدّرب و لم تكن زروقة في مقدّمته. و لم يكن الناقوس معلّقا على عنقها. بل كان " بيي" من يضعه على كتفه. و لم يكن يصدر صوتا. و لم تكن القبّعة فوق رأسه. و لم يكن يبتسم كعادته. وكان الكلبان هما ما يتقدّم القطيع. كنت أسأل أختي حبيبة، و لم تكن تريد أن تردّ على سؤالي وأنا أرى في عينيها دمعتان. أحسست أن أسئلتي كانت تحرجها. تعمّدت ذلك وأنا ألحّ عليها. لكني لم أتوقف على طرح أسئلتي، ونحن في طريقنا إلى البيت. بعدما أخذنا حصّتنا من الحليب.

كانت أختي حبيبة حزينة. انزوت في غرفة من غرف البيت، وبدأت تنسج بصوت كنّا نسمعه ونحن نجتمع على مائدة العشاء وسط فنائه. و لم أكن أنا قد أدركت بعد ما السرّ في حزنها وبكائها.. !؟ إن خروج القطيع إلى المراعي في الصباح الباكر. غالبا ما كان يفوّت عليّ أن أراه وهو يتجه نحوها.

في المساء، عند عودة القطيع، لم تكن لأختي حبيبة الرّغبة في الذهاب إلى الزريبة. لقد أرسلتني دونها وكانت أول مرّة تفعل هذا. هي أول مرّة أذهب فيها وحيدا وكانت البداية. في طريقي إلى الزريبة كنت أتذكّر المعزة زروقة. وأنا اسمع صوت النّاقوس النحاسي. لم يكن معلّقا على عنقها، لقد كان معلّقا على عنق معزة أخرى بيضاء مرقّطة بالبرتقالي الفاتح.

كان " بيي " وراء القطيع يسوقه، يغطي رأسه بقبّعة جلدية. ويحمل على كتفه قربا، والكلبان يسيران بجانبه.

***

سنـوات في قـارورة

إنه الآن يقطع المسافة إلى عين المكان، الذي اعتاد أن يحضر إليه، كلّما تحرّك شوق القصبة في نفسه. مكان له ارتباط به. منذ زمن بعيد. يقدره بجيل أو جيلين. أو ربما يتخطى ذلك. إنّها أيام الصّبا والشباب. تدفن في هذه الأحجار التي تنبت في المكان. حينما كان يحضر ولّمة الأقران. لكنه الآن يجد نفسه وحيدا. لقد غادر البعض خارج الوطن. منذ فترات. و لم يعد يعلم عنهم شيئا.

الوقت غروب. وقرص الشّمس البرتقالي يكاد يغيب في أفق البحر. وهو اللّحظة، يحمل على كتفه قصبة صيد. وبيده اليسرى يحمل قفة من العزف، يضع فيها طعام العشاء. و الطّعم الذي سيحتاجه لهذه اللّيلة.

ينحدر بتؤدة وبخطى ثابتة. إن الأحجار التي يضع عليها أقدامه قد تخونه في أية لحظة. صخور تشهد على مراحل من حياته. وحياة أقرانه.

يتأمل الشفق، وهو يعكس أرجوان ألوانه، على وجهه الرجولي. ونسمات البحر، تهبّ نحوه في اشتهاء، فيشتمّها بعمق. فتحضره ذكرى صديقه الهادي. كلما حضرا معا إلى هنا كان يقول له:

- كلّما شممت رائحة البحر وعبق نسماته، إلا وأحسست بأني أولد من جديد.

كأنه يسمع صدى الكلمات، يتردد على صخور الجبل، الذي يحاصر المكان. لقد عشق البحر كما عشقه صديقه الهادي.

في غفلة منه، وبين ثنايا الذكريات، كان الظلام قد بدأ يحجب المكان. وظل هو ينتظر طلوع القمر، ليمارس هوايته على نوره الفضي. قد يستغرق مكوثه هناك اللّيل كله.

في لحظة التّأمل. يشرع القمر في البزوغ. وهو يرفع شراعه. ويخاطب كلّ الصّيادين. إنه مساء آخر، وليلة قد تأتي بصيد وفير. فتعود عليهم بالخير والرّزق. ليلة يدثّرها غمام يصعد بريح الشرقي، حيث تحبّ الأسماك أن تندفع مع أمواجه بحثا عن الغذاء.

بعد أن يلقم لقيمات يسد بها جوعه الليلي. وهو يهيئ القصبة، ثم ليرمي بالصنّارة إلى البحر. بعد أن يضع بها الطّعم. وهو يبسمل.." باسم الله.. اللهم اجعل صيدنا هذه الليلة صيدا وفيرا.. " يتّخذ مكانا له على صخرة. صخرة تطلّ بعلوها الشاهق على شساعة البحر. إنه مكان مناسب يستطيع أن يرمي منه بصنارته بكل أمان. حيث الرّؤية المناسبة. والتي تزداد وضوحا كلّما توسّط القمر السّماء. يتتبع حركاته الخفية، فيحسبها سنينا من عمره. من حياته وهو يتذكّر ذاك اليوم . وكان أول يوم يحضر فيه إلى هنا. حضوره صيادا وليس زائرا.

كانت بداية الحكاية من ذلك التاريخ. يسردها على مسمع أقاربه ومعارفه كلّ مرّة. يحكي أنها كانت أوّل ليلة يأتي فيها إلى هذا المكان، أوّل مرّة يرمي فيها بصنارته الى البحر، ليغنم بصيد وفير، لكنّه وهو كذلك، كان قد سمع صوتا يهتف به. وهو ما تكرر هذه اللّيلة. شيء ما كان يتحرّك بقربه. ثم إذا به ينتبه على تحرّك خيط الصنّارة. يمسك بالقصبة ويتهيّأ لسحبها، لقد فعل ذلك بسرعة، وهو يجذبها بقوة، لكنّها كانت ثقيلة. بدا يحاول إخراجها من الماء، لكنه لم يستطع. كرّر ذلك مرّات، تمزّق خيطها. أصلحه على عجل ثم رمى به ثانية إلى البحر. غريب ذلك الإحساس الذي نزل به وقتئذ.

كان أمله أن يكون صيده هذه اللّيلة وفيرا. كان استغرابه كبيرا. فالمكان يعرفه جيّدا. مكان تحب الأسماك أن تجتمع فيه.

لقد ظل يحاول مدّة طويلة. كان اللّيل قد قضم ثلث الوقت. غفى غفوة، لم يدرك كم مرّ منه عليه من الوقت. سحابة تحجب ضوء القمر، لم تعد الرّؤية واضحة. انتبه على زخّات المطر تلامس وجهه البارد. نظر إلى السّماء. سحابة ترسل قطرات خفيفة، ولم يكن في السّماء سواها. ثمّ أحسّ بريح الشرقي تهب بقوّة. تتحرك مندفعة نحوه. فتندفع أمواج البحر. وأصبح هائجا. وبدأت تلاطم الأحجار التي تقابل البحر. التي كان يجلس على إحداها. رشّات متتالية تبلّل المكان. أمسك بالقصبة وقرّر أن يغادر المكان. حاول سحب الصنارة لكنه لم يستطع هذه المرّة كذلك. كانت ثقيلة. خمن أنها سمكة كبيرة.

قطرات المطر تتكاثر وقوّة الرّيح تزداد. وهدير البحر يملأ سمعه. وهو يحاول سحب الصّنّارة. كانت ثقيلة. كاد أن يمزّق الخيط. لكن قطرات السحابة كانت قد بدأت تقل وهو يراها تبتعد عن مكانه شيئا فشيئا. وضوء القمر يكسّر ما تلاشى منها. فيرسل ضوءه الفضي على البحر. ثم يقل هدير البحر، وتسكن الرّيح. ويهدأ هيجانه. يشرع في سحب خيط الصنارة بلطف. شيء ما كان يعلق بها، وهو يراه يقترب منه. دون حراك.

كانت قنّينة زجاجية، فتحها، وجد بها ورقة مكتوبا عليها :

الهادي هو اسمي، و١٩٥٨ هو تاريخ ميلادي. تطوان هي عنواني. هاجرت إلى إسبانيا على قارب الموت سنة ١٩٨٠. حضرت مخاض امرأة، كانت ترافقنا. توقف بنا محرّك القارب فلم ندر كيف سيكون مصيرنا..!؟

كانت الرّسالة التي قرأها، رسالة معبّرة، أحدثت في نفسه رجّة. وهو يعيد قراءتها، مرات ومرّات، كان يتذكر صديقه الهادي. الذي سافر و لم يعد يعرف عنه شيئا.

كانت قطرات من دموعه تبلّل الرّسالة، وهو لا يزال يقرأها، ويقرأ منها اسم الهادي..

جمع خيط الصّنارة، وغادر المكان حزينا، وقد قرّر أن لا يعود إليه ثانية..

***

سخريـة مـرآة

تدقّ السّاعة الحائطية، الخامسة مساءاً. حليمة في تلك اللّحظة، كانت تجلس أمام المرآة. تعدّ دقّاتها وتتزين. ستحضر حفل هذا المساء. الذي سيكون بعد السّاعة الثّامنة . لقد تمّت دعوتها، الأسبوع الماضي، ولازالت تحتفظ ببطاقة الدعوة. لقد قررت أن تحضرها. هو حفل يختلط فيه الرّجال بالنساء وهي تحب مثل هذه الحفلات.

بطاقة الدعوة الموضوعة فوق الطاولة، منذ الصّباح تذكرها بالسّاعة والمكان. كانت تنظر إلى نفسها في المرآة. على خصلات شعرها الطّويل كانت تركّز نظراتها. بلونه البني، فتمرّر المشط عليه، تتذكر أيام الصبا. كانت أغلب صديقاتها يغرن منها. فلم يكن لإحداهن جمالاً، كجمال شعرها.

تضع المساحيق على وجهها. الأحمر على خدّيها وشفتيها. والأسود فوق رموش عينيها. ثم تضع عقدا في عنقها. كانت تشعر بأنها ستكون الأحلى والأجمل، أجمل امرأة في حفل هذا المساء. ستخطف الأضواء، كانت تعلم ذلك جيّداً. لهذا فقد حاولت أن تكون زينتها كاملة. إنها تدرك الآن بأنها أجمل امرأة على وجه الأرض.

إن رتابة الأيام، صباح ثم مساء، وأشغال البيت ومشاغله، جعلتها تحسّ بالرتابة والقنوط. فتضيق نفسها. وتحسّ بحسرة تؤلم قلبها. ستقودها إلى أن تبحث عمّن يؤنس وحدتها. تنظر إلى المرآة فتتراءى لها علامة الحزن تنغرس في قسمات وجهها. فتظلل جزءا من جمالها. تحاول أن لا تكترث لذلك لكنها لم تكن لتستطيع. إنها تجتر آلاما وأحزانا من عيش ملّت رتابته، وكرهت منه المزيد. كلّ شيء الآن لا يساوي في نظرها شيئا. ليتها تجد من يؤنس وحدتها ويغيّب ضياعها. شيء قد تستطيع به أن تكسّر أغلال رتابة حياتها.

فكّرت مليا وهي تنظر إلى مفاتن جمالها في المرآة، إنها الآن في العقد الثالث من عمرها، لا تزال فاتنة وجذابة. قد يستهوي جمالها كلّ من رآها. وبعطرها تستطيع أن تجذب إليها

كلّ من اقترب منها. أدركت أن لابدّ لها أن ترتبط بشخص يؤنس وحدتها. ويذيب رتابة أيامها.

في لحظة كانت تقهقه بأعلى صوتها، حتى دوت الغرفة ودمعت عيناها. لقد نسيت أنها متزوّجة..

***

السّبع بُولعْبة

كما استأنست، إنّ اللحظة هي استرخاء في قيلولة، اعتدت عليها منذ زمن طويل. أصعد أدراج الدور الثّاني، حيث توجد غرفتي، المطلّة بنافذتها على السطوح.

عادة أحببتها، واتّخذتها ملاذا، أمنح فيها جسدي قسطا من الرّاحة. وأستمتع بالموسيقى. كان يحلو لي ذلك أيام الصّيف. تمددت فوق فراشي. وشرعت أحاور سقف غرفتي بنظراتي.

تناهى إلى سمعي فجأة، صياح وبكاء. وكان الصّوت ليس بغريب عني. فتحت باب السّطح، ومشيت خطوات قليلة، فإذا بي أقف قرب نافذة صغيرة، تطلّ على الدرب مباشرة. أطللت برأسي من النافذة، نحو مكان الصراخ، كنت أرمي بنظراتي. أطفال يتراكلون ويتدافعون، على كرة صغيرة. كانت بينهم. بينما انزوى أحدهم في ركن، وكان هو من يبكي، بكاء رضيع.

أثارني مشهد هذا البكّاء، فقد كنت أدرك من هو.. !. كدت أن أتدخّل، عساني أستطيع أن أسكت بكاءه. لكنني عدلت عن ذلك، واكتفيت أن أتابع لقطات الحدث في صمت، وكأني بذلك أحاول أن أنسج خيوط لوحة تشكيلة، هممت برسمها.

إن سن الأطفال، كان متقاربا، خمنت أن يكون بين التسع والعشر سنوات. وحتى أشكال أجسامهم، التي كانت تبدوا وكأنها تنحوا نحو النحالة . وعلى طول متقارب. إلا واحدا منهم، ذلك البكّاء المتروي في ذلك الركن الذي يحوي حوائجهم.

كان يبدو أنّه يكبرهم سنا وجسما. ببنية قوية وجسم ضخم. وكان لايزال يبكي بصوت مرتفع. إنه " السّبع بولعبة."

كان هو لقبه. يُعرف بجبنه وقلّة حيلته. دائم اللّعاب في فمه. يظل يسيل منه حتى يبلّل ذقنه وصدره.

قرّر الأطفال ذات مرّة، أن يقوموا بجولة داخل البرج. هو مكان يحلو لهم فيه أن يمرحوا ويلعبوا. كان البرج خارج الحي ويعلو فوقه بعلو كبير. على ربوة كان يتموقع. بناه الإسبان عهد الحماية، ليراقبوا الوافدين على المدينة.

كان البرج بشكله الهندسي، وبنوافذه الكثيرة، المطلّة على الحي، فضاء يلتجئ إليه الأطفال ليمارسوا لعبهم وشقاوتهم. فضاء يثير فضولهم. يستغلون تواجدهم داخله ليطلوا من نوافذه الكثيرة، على السطوح. إن وجودهم داخله، هو ترويح عن أنفسهم. فيحلوا لهم أن يلعبوا لعبة اللّص والشرطي. لعبة يحكمها قانون الهروب والاختباء حيث تبدأ الشرطة بالبحث والتّقصي كي تعثر على اللّصوص. يتفرّقون في اتجاهات مختلفة. يختبئون في أماكن متفرّقة أطول مدّة ممكنة، يعتمد قانون اللّعبة ، عنصر المفاجأة.

كان "السّبع بولعبة" يتجه نحو مكان يحاول الاختباء فيه. مكان تكثر به حشائش وأعشاب، ونباتات يابسة تغطي أكواما من الحجر. لحظة كان يسمع فحيحا، كانت أفعى سوداء كادت أن تلدغه. أطلق ساقيه للرّيح دون سابق إشعار. ودون أن يلوي على شيء. إنه الخوف والجبن المكنون داخل نفسه. وما هي إلا لحظات حتى كان" السبع بولعبة" الخواف ينقبع بعتبة باب بيتهم. يتسمر قربه دون حراك. شاحب الوجه، مرتجف الجسد، جاحظ العينين. يلبسه عرق خفيف. بينما ظلّ كل أقرانه داخل البرج. يقاومون اندفاع الأفعى نحوهم وهجومها عليهم. بالعصي والهراوات كانت المقاومة. ولا زالت حتى تمكنوا منها، فأصبحت هامدة أمامهم بطولها وغلظها. لقد ظلّوا ينادونه دون فائدة. ويطلبون منه التّوقف. لم يعرهم سمعه وانتفض إلى برّ النّجاة. وقد وظف كل مهاراته في الجري والسّرعة.

حينما اجتمع الصبية حول مكان الأفعى، كان" السبع بولعبة" يتثبت بمقبض باب بيتهم. وظلوا يصوبون إليها ضرباتهم حتى نالوا منها. إنهم يأخذونها الآن فوق عصا طويلة وغليظة. ويتجهون بها إلى الحي. لقد فعلوا ذلك ليثبتوا لسكان الحي أنهم من الشجعان.

إن معظم آبائهم ممن شاركوا في حرب الإسبان. كانوا يحملونها بالتناوب، وهم يتجهون إلى الحي ويهتفون:

- اقتلنا الحية ..اقتلنا الحية..

عند باب الدرب كان " السّبع بولعبة" يقف عندما تناهى إلى سمعه هتافهم. وآثار الرعب ترتسم على وجهه، وهو يسأل متلعثما:

- من االلذي..مممتتت ..ببسسسسم.. د.. الححححييا..

يستقبلون سؤاله بقهقهات، كانت تدوي في أركان الحي فتنعش رطوبة أسواره، بلونها البني الباهت. فيجيبه أحدهم بأن الأفعى هي التي ماتت. كان يقف منتشيا بلحظة النّصر. وأسارير وجهه تنشرح وهو يراها ميتة تحمل فوق عصا. قهقه لمدّة طويلة وهو يقفز إلى الأعلى. ويضرب برجليه الأرض. كان بذلك يعبر عن مشاركته في قتل الأفعى. وقد بدأ يعوي كذئب جائع.

بدا يستعطفهم أن يسمحوا له بحملها. انصاعوا لأمره، فكان ينظر إليهم ببلاهة، وهو يحملها فوق العصا. وقد تقدّم جماعة الأطفال. يردد اقتلنا الحية.. ليرددوا وراءه .. اقتلنا الحية..

كان يمشي وسط الحي وفرحة بليدة تعلو وجهه. يشير للأفعى برأسه وبأصبعه لنفسه. يحلق في نسوة الحي اللواتي اعتمرن أبواب البيوت. ومنهن من تكدسن فوق السطوح. رجل مسن يتقدم نحو الأطفال. يتكئ على عكاز برجل واحدة، والأخرى أداها ضريبة في الحرب الأهلية الإسبانية، التي شارك فيها.

- هكذا يكون الرّجال.. ويسألهم من هذا البطل الذي قتل الأفعى..؟

ظل الصبية صامتين، وكأنهم يتركون الإجابة تأتي على لسان " السبع بولعبة." هو من كان يحمل الأفعى المقتولة والموضوعة فوق العصا. نظر حوله ثم أجاب :

- أنا من قتل الأفعى..

انطلقت ضحكات الصبية تنساب على ثغورهم الندية. ثم تبعتها ضحكات أهل الحي.

ودوى هتافهم:

- " السبع بولعبة " .. قتل الأفعى..

كان ينظر إليهم ببلاهة، وهو يبتسم ابتسامة يبلّلها لعاب، يترل من فمه، ليسيل على ذقنه ثم طوقه..

***

سمك الفَرْن

الجو ممطر هذا المساء، والسّحب الدّاكنة تغطي وجه السّماء بلحاف رمادي. أرض الدّرب مبلّلة حدّ الإشباع. وأضواء الحي خافتة، تتناوب على الإضاءة.
ينزل الهاشمي، إلى قاع الدّرب، بعد أن يجرّ وراءه باب الفران، الكبير والقديم. جراً خفيفاً، لكنه كان يصدر قعقعةً، كما يجرّ جسده النّحيل الملفوف في معطف أخضر قديم وبال. ابتذله منذ هداه إياه صديقه اليهودي، الذي كان يسكن منزلاً يقابل فرنه.
انه سيعود إلى الفرن، بعد مدّة وجيزة، سيقضيها مع كريمو صاحب البقالة.
يغازل بعكازه، صفيح الأرض، المتراص على شكل غير منظم. يتعثّر منقار عكّازه الحديدي. بين فكيّ صفيحتين، لم تعودا متراصتان. يتمتم ببعض الكلمات، كنّا نفهم منها أنّها قذف وشتم. ثمّ نراه يبصق على الهواء، وقد اغتاظ وغضب واحمرّ وجهه.
ينحدر بخطى تؤدة، فيميل يسارا، حيث يوجد دكّان كريمو. يقف وقفته المائلة، أو يعرّج يمينا في اتجاه باب النّوادر، إن كان يرغب في ملء جرّة الماء، حيث يوجد القنا. المحاور لضريح سيدي ناجي.
بطاقيته الصّوفيّة، ونظراته الفاحصة للسّلع التي أحضرها كريمو لتوّه، يظل كذلك مدّة، يستفسر فيها عن ثمن كلّ سلعة. ليقارن ثمنها القديم بالجديد. فما يكاد كريمو يتلفّظ بأثمنتها، حتّى يردّ بعبارته المعهودة.
(الله يخلها سلعة.. كيعرفوا ..غير الزيادة..)
يحالفني الحظ، أن أوجد في تلك اللّحظة، قرب دكّان كريمو. أنصت لتعليقاته المضحكة، فأطلق ضحكة، وأنا على أهبة الانصراف ثم الجري بعيداً. إنّه الآن يحد جني بنظرته المشاكسة، كنت أدرك منها أنه غاضب مني. فأسمعه يقول:
ــــــ وأنت ماذا تريد أيها الكلب اللّعين.
أقهقه وأنا أرد عليه في تحد : أن أعضك من أنفك أيها القرد الشّارف..

أكون قد اندفعت هاربا، حيث لا يلحق بي. حينما ينتفض منفعلا، يهشّ علي بعكازه، وهو يسمعني ما يحلو له من الشتائم. بصوت كان يسمعه الجميع. لقد كنت أتوقّع منه ذلك. لذا فأنا أغيظه كلّما رآني. أردّ على مشاكسته وأنا على أتمّ استعدادي للهرب.

يطلب من كريمو صاحب البقالة، مشروب فانتا. مشروب يفضله على كلّ المشروبات منذ أن عرفته. يحب انتعاشته، في أيام الخريف النّدية. بعد أن يقضي يومه كاملا وهو بداخل الفرن، يهيئ الخبز للطّهي. مهنة ورثها عن أبيه. منذ كان صبيا يافعا. ولا زال يمارسها بكلّ إتقان وتفان. كان الحُسْينُ هو من يرمي الخبز وطواجن الحوت قرب النّار. ثمّ يقفل عليها بابا حديديا صغيرا.نصف دائري.

يلعق الهاشمي من مشروب فانتا لعقة خفيفة. ويبتسم ابتسامة ماكرة، ثم يدخل يده في جيب معطفه البالي، ويخرج كومة من السّنتيمات، ويبدأ في عدّ ثمنها، وهو يميل برأسه نحو اليسار. ولا يقدّمه لكريمو البقال، حتى وقت انصرافه. يسلّم الثمن وهو يلاعب عكّازه. أكون أنا قد انزويت إلى ركن قريب، أراقب كلّ ما يفعل، دون أن أقترب منه. أظلّ أراقبه في حذر، ولا قدرة لي على الاقتراب أكثر. كنت أعلم بأني لو فعلت ذلك لتعرضت لضربة قاضية، من عكّازه اللّعين. وأني سوف أتلقى كلّ أنواع السّب والشتم والإهانة .

ـــــ الله يلعن اللي ما يحشم، سر أولد الكلبة..

ترسلني والدتي، إلى فرن الهاشمي، لأضع عنده تاجين الشطون. سمك تزداد لذّته كلما طهيناه في فرن الهاشمي. كنت أعشق أنواع التواجين التي تطهى في فرانه. ولا أحبّ أن أرى خلقته. و لم تكن والدتي تعلم عن ذلك شيئا. أرفض عرضها، وأنا مكره على فعل ذلك. أبدأ في المراوغة، وأنا أحاول أن أقنعها بحجج واهية. سرعان ما تهجن أمام إلحاحها. فتغضب مني. وتنعتني بالخامل الكسلان. لكني كنت أريد أن أكون ابنا بارا. وهكذا قررت أن أفعل ما تطلبه مني والدتي المسكينة، التي لم تكن تعلم أنّ بيني وبين

الهاشمي حربا ضروسا. وعداوة قديمة. تمتدّ جذورها منذ أن صعدت سطح فرانه.ذات يوم. واشتعلت شرارتها، منذ ذلك اليوم. يوم طيّرت الكرة فوق سطح فرانه.

كانت الكرة بين أقدامنا، نتقاذفها الواحد بعد الآخر. و لم أكن أتوقّع أن تلك القذفة الطائشة وأنا أمثل "خينطو" النجم الإسباني الشهير، في قذفته نحو المرمى، ستوقعني في مأزق لم أكن أعرف عواقبه، حتى جرّبت ذلك. وكان درسا لم أنساه طوال حياتي. لقد استقرت الكرة فوق سطح الفرّان. وقانون اللّعبة يفرض على من طيّرها، أن يأتي بها.

كنت أصعد سطح الفرّان منتشيا. وأنا أحس وكأني بطل سينفّذ مهمّة. بين هتاف أترابي، و لم أكن أدرك أن وبالا سيترل بي بمجرد وصولي فوقه. لم أكن أتوقّع بأني سأسجن فوقه لمدّة طويلة. ذقت فيها أعتى ألوان المهانة. قضيت مدّتها وأنا أستعطف الهاشمي بأن يعفو عني ويتركني أنزل. فكنت كلّما هممت بالترول، إلا ووجدت عكازه لي بالمرصاد. أذوق ضرباته. لأبتعد مذعورا، أظل أترجاه وأستحلفه بأن يسامحني، وأن تكون هذه آخر مرّة أفعل فيها هذا. وأحلف بأغلظ الأيمان، وأذكر على سمعه كل ما حفظته من متون وأدعية. لكنّه لم يكن يعبأ باستعطافي. و لم يرث لحالي. فأظلّ كذلك لمدة. و لم يعف عنّي، حتى أشبع رغبته في تدليلي واحتقاري.

يسمح لي بالنّزول، وما كادت قدمايا تطآن الأرض، حتى انهال علي بالضرب والرفس، والتقريح والسبّ والشّتم. كان عكازه الغليظ يترل على ظهري فيقسمه إلى أربع قسمات.

لا زلت أذكر تلك الضربات. التي ورّثت في نفسي حقدا بغيضا، ظللت أضمره للهاشمي، طوال حياتي. لقد تركت آثارها على جسدي. و لم أكن أستطيع أن أخبر والدي عن ذلك شيئا، كنت أعلم أني لو فعلت للامني والدي كثيرا. فحفظت سرّي. لكن الهاشمي منذ ذلك اليوم أصبح من ألد أعدائي، فقررت الانتقام وكان انتقاما مؤلما بالنسبة إليه. وكان لي عذري.

التقطت حجرا كبيرا، من درب البوالين، ورميت به، سقط الحجر داخل الفرّان، الذي كان يمتلئ عن آخره بالطواجن المختلفة من أنواع الأسماك والحوت. إنها مناسبة دينية، يحب أهل الحي أن يكون غذاءهم سمك الفرن. لكن عددا كبيرا منها كان قد تكسّر وضاع سمكه وسال مرقه.

لاتزال والدتي تصرّ علي، لأنفذ أمرها، ولا أزال أنا أتملّص من القيام بذلك. فلا أحد بدا من أن أقوم بما تطلبه مني، وأنا أبحث عن حلّ يبعدني عن مواجهة الهاشمي. أتوجه به على مضض وأنا أستحضر في مخيّلتي صورة صديقي أحمد الشريف، هو من سينوب عني في توصيله. أستنجد به، وأستعطفه بأن يعينني. يتكفّل هو بإيصاله ثمّ تسليمه للهاشمي، الذي يأخذه منه وهو يطلّ برأسه إلى رأس الدّرب. حيث أختبئ أنا في ركن ولا أترك له الفرصة بأن يراني. كنت أراه يلتفت يمينا ثمّ يسارا وكأنه بذلك يبحث عني.

كان عليّ أن أعود بالطّاجين، بعد طهيه، يكون أحمد قد دخل دارهم ليتناول طعام الغذاء. لكني أكون مجبرا هذه المرّة، أن أذهب بنفسي إلى الفرّان. وهذا شيء يصعب عليّ القيام به. بعد تردّد وجدت نفسي واقفا بباب الفرّان منكمشا في جلبابي، خائفا ومدلولا، كنت أعلم بأني الآن أوجد في مملكته ولا أستطيع أن أفعل شيئا. سلاحي الصّبر والانتظار. ولا أزال كذلك حتى خرج الهاشمي ليرمي نظرة على الواقفين، وما أن رآني حتى توجه نحوي مزمجراً، وهو يقول :

ـــــ لقد أخذه أبوك، وكنت أعلم أنّ أبي لم يأت بعد إلى البيت، لكنني لم أكن أستطيع أن أقارعه بالحجّة.

صعدت طريق الدّرب خائباً ككلّ مرّة أحاول فيها أن أصالحه. وأنا أدرك أنّ والدتي ستغضب مني كثيرا. تسألني وهي ترى يديّ فارغتين، فما كدت أرد على أسئلتها المتتابعة، وأنا أتلكّأ، حتى كان أبي قد حضر وطاجين السّمك بين يديه. نظر إلي نظرة عتاب، لم أكن أكترث لنظراته، فلي مبرّري، لكني لم أكن راضياً يوما ما عمّا فعلته مع الهاشمي.

وسادة من حجر

الصّبي يغطّ في نوم عميق. والصباح البارد بجوّه، يحجب سماءه ضباب نديّ و كثيف. يندفع برياح الشرقي، الصّاعدة عبر وادي مرتيل. المحاذي لجبل غرغيز الرّخاء. ينذر بهطول زخّات مطريّة، انبجست منذ قليل.

الحافلات المتراصة، تحتلّ أماكنها في ساحة الحمامة. إن الذين سيركبونها في اتجاهات مختلفة، هم الآن يعمرونها. والآخرون يكوّنون جماعات صغيرة، لازالت تنتظر ما ستفعله. قرب المحطّة وعلى جنبها كانوا يجتمعون.

الكلّ ينتظر دوره. ينتظرون الحافلة التي ستنقلهم إلى الأماكن التي يتوجهون إليها.

ككل صباح، يخرج الأستاذ مبارك، ليتوجّه إلى عمله. الصّباح الباكر والندى الطريّ، ينعش روحه. يحمل محفظته ويسير في نفس الاتجاه الذي يقصده عادة.

يمرّ قرب معمل الورق، الذي كان بالأمس في ملك الإسباني" بنيط." لقد كان من أهم معامل الورق بالمنطقة الشّمالية.

إن مروره المتكرّر من هناك كان يذكّره بأمور كثيرة. يحاول نسيانها وهو يشيح بوجهه إلى الجهة المقابلة. قرب باب المعمل الرئيس، كانت الرّياح العاصفة للّيلة الماضية، قد أسقطت شجرة المموزا الخضراء بأزهارها الصّفراء الفوّاحة. الشجرة تكوّن مخبأ يوحي وكأنه من مخابئ غابات" الأمزون."

تسقط عين الأستاذ مبارك، على صبي يتكوّم داخله، يغطّ في نوم عميق، يفترش الأرض، ويتوسّد حجراً. وكلب بقربه يلعق ما تبقى من فتات طعام...

***

قطار آخر الـلّيل

كقطار، عمره. يطوي المسافات. يتذكّر ذلك وهو يتكوّم فوق المقعد، داخل المقصورة الخالية، إلا منه. خلف النّافذة، كان يتتّبع التواء السّكّة. والقطار يسحقها، بسرعته العالية. تلتوي السّكّة بين الفجاج الضيقة والمتّسعة أحيانا، كأفعى. يستمع لصفيره، يتردّد في خواءاتها صدى. وعلى صفحات الجبال الثابتة، على طول الطّريق الحاملة لثقلها، وفوق الغابات المبلّلة بشتاء الخريف.

المسافات لم تعد تنهك سرعة القطار، صور تتزاحم أمام عينيه. وتندثر بسرعة، مع سرعة القطار. يفتح نوافذ المقصورة لوهلة، ثمّ يسرع لإغلاقها، أجسام ترتمي فوق مقاعد المقصورة الخشبيّة. وأفواه تبتلع ما يقدّم لها من طعام. نهود تتدلّى، فتبرز من تحت الأقمصة الشّفّافة. لتطعم حليبا لصبايا، يمتصونها بتلذذ. وهم يدغدغونها بالأنامل الرّقيقة. يجلس المهدي في سكون، يرمق زخم الصّور الذي يملأ فضاء المقصورة. وهو يمسحه بعينيه الناعستين مرات ومرّات. كلّ الأشياء أصبحت غريبة .

الجالسون أمامه الآن، يتفاوتون في أعمارهم. شيخ أنيق، يشتم العطوس بشكل راق. وأمّ ترضع صبيّها، وفتاة في مقتبل العمر. مليحة الوجه والخلقة. بدت تسترق إليه النّظر منذ جلوسها أمامه. وهو يوزّع نظراته، بين قسمات وجوههم. ويخمن ذات الوقت، في العلاقة التي تربطهم ببعضهم. لقد اقتحموا المقصورة جماعة. حينما توقّف القطار في محطّة اثنين سيدي اليماني.

أخرج الشيخ خبزاً من القمح. قسّمها وإياه إلى نصفين متساويين. قشّرت المرأة برتقالة، أعطته أشطرا منها. لكن البنت كانت أكرمهم معه، وهي تمنحه تفاحة كاملة. مع ابتسامة مليحة من ثغرها الجذاب. كان قد وضع كلّ ما حصل عليه بين يديه، وظلّ يتأمّله. ثم رفع بصره نحوهم، وهو يحملق بانتباه، وكأنه ينتظر أن يفاتحه أحد منهم بكلمة. كان يدرك بأن حوارا خفيفا معهم، سيعرّفه بهم وبأحوالهم. وقد يصل إلى معرفة العلاقة التي تربط بينهم..؟. كان يريد ذلك بكلّ إصرار.

لقد أخذ منه تعب السّفر وأنهكه. كان يبدو كذلك، وهو يغفو بين الحين والآخر. لقد استقل القطار من طنجة، الساعة العاشرة ليلاً. ولن يصل فاس إلا مع الرّابعة صباحاً.

سمع المرأة تنادي الشيخ أبي. والفتاة تنادي المرأة أختي. لقد أدرك الآن الرّابط الذي يربط بينهم، قرّر أن يعرّفهم بنفسه.

ـــــ اسمي المهدي، أستاذ بإقليم تاونات. أعزب، تعمّد أن يذكر ذلك، أمام الفتاة. كان يحاول أن يستميلها إليه. تبسّمت وهي تسمع منه ذلك. هي الأخرى أستاذة بنفس الإقليم. خطرت بباله فكرة، سيحاول أن يطلب منها عنوانها، ليحدّد معها موعدا . لو فعل ذلك، لكان أجدى وأطيب. ولو حالفه الحظّ، وأصبحت من نصيبه، ويعني بذلك خطيبته. وتمكّن من الاستقرار بمكان يقرب إلى الطريق الرئيس. سينعمان معا بقضاء عطلة الأسبوع بفاس.. حمد المهدي الله وشكره في نفسه على هذه النّعمة واسترخى فوق مقعد القاطرة الخشبي.

استفاق على صوت الجابي، وهو ينقر على خشب المقعد بالمقبض الحديدي الذي يمسكه بين يديه يطلب منه تذكرة السّفر. كان يحاول أن يفعل ذلك، وهو يفتح عينيه المغمّضتين. فكان يبدو وكأنّه نام ليلة كاملة.

كانت المقصورة فارغة، إلا منه، ظلّ يحملق في وجه الجابي ببلاهة، الذي كان هو الآخر ينظر إليه باستغراب. ويقرأ اسم المدينة المكتوب على التّذكرة ، كانت فاس، لكن القطار هو الآن على مشارف تازة.

انتفض المهدي من مكانه مفزوعا ومضى يهرول داخل القطار، ويطل برأسه داخل كلّ مقصورة كان يمرّ بها. كان يبدو وكأنه يبحث عن شيء ما. وكان الجابي يتبعه بسرعة وهو يردّد:

- تذكرة سفرك.. تذكرة سفرك..

***

سنة سعيدة في مدينة جميلة

حينما فكّر في أن يعبر ذلك الشّارع الطّويل والضّيّق ، الذي كان يعلم أنه شارع تصطف على طوله مطاعم، التي عادة ما تزيّن واجهاها الزّجاجيّة، أنواع متعدّدة ومختلفة من الأطعمة.

كان يسير متعثّر الخطى، وكانت تلك هي آخر أمسية من أمسيات السّنة. وعيناه تتقاسم النّظر يمين الشّارع ويساره. يزّاور كلّما وجد مسلكا، يقطعه حيث يوصله إلى النّاحية المقابلة.

ترتمي نظراته عليها، على تلك الواجهات، التي في الحقيقة، هي ثلاجات زجاجية. توضع قرب الأبواب. تحتلّ جزءاً من الرّصيف. ممر الرّاجلين.

في تلك الثّلاّجات الزّجاجية، تتراكم أنواع الأطعمة، كان يبدو بعضاً منها وقد فقد طراوته ولذّته. لكنّه رغم ذلك، كان يتمنّى لو يقتات منها شيئاً. يملأ به معدته الخاوية، منذ البارحة. لم تكن قد استقبلت، غير شيء يسير من الخبز والجبن. أمّا اللّحم والسّمك اللّذان يغريان شهيّته، فلم يصلا إلى معدته منذ وقت طويل. إن آخر وجبة دسمة، حظيت ها معدته، كانت شربة الدّجاج، التّي تصدّق ها عليه محسن، وكان ذلك قبل شهر حينما يقف كعادته، يتفرّج على أولائك الأكّالين، بباب أحد المطاعم المشهورة بالشّارع الذي يمر منه اللّحظة.

يظلّ يتفرّج عليهم، وهم ينهمون أكلهم بضراوة. وينظر إليهم باستعطاف، علّهم يجودون عليه بلقمة. نظراته من وراء الزّجاج الذي يفصل مكان جلوسهم عن الشّارع. تتبع لقيمات اللّحم واللّحم المفروم، وهي تقطع المسافة الفاصلة، بين ما وضعت فيه، وأفواههم المفتوحة. أفواه تنتظر ذلك باشتهاء، لتستقرّ في بطونهم المتدلّية، من تحت الطّاولات التي يزدحمون حولها منذ ساعات. يظلّ هو يبتلع ريقه، في شده. إنّهم قادرون على دفع ثمن أكلهم. أمّا أمثاله، فيكفيهم أن يتفرّجوا من وراء الواجهات الزّجاجية. التي تُزيّن بأشجار أعياد الميلاد المرصعة بمصابيح تختلف ألوانها، تنطفئ وتشتعل. يظلّ لعابه

يسيل، وهو يتأمّل القائمة الطّويلة، للوجبات ،المكتوبة بحروف لاتينية بارزة ومنمّقة. أسماء الأكلات و أثمنتها، ورسوم لنماذج من الأطعمة.

كان يمدّ يده، شاحب الوجه، وأوتار بطنه تعزف أغنية الجوع، يحاول أن يلمس قطع الحلوى، التي كانت توضع داخل الواجهة الزّجاجية. يقترب منها أكثر. تضاء المصابيح الملوّنة، فيُكتب بألوان زاهية، سنة سعيدة..

***

امرأة ذابلة

نظراته التّائهة، عبر الأفق الذي كان يبدو مبلّطا بألوان الطّيف، توحي بأنّ تفكيره الآن مشغول بشيء ما.. بينما المدينة تبدو ساكنة. لا يحرّكها غير ظلال غيوم قادمة، تزحف فتحجب الشّمس كلّ مرّة. ثم تظهر من جديد.

الجماعة. جماعة المدرّسين، التي تركن إلى جنبه، غارقة في صخب من الكلمات المبتذلة. ضحكات وقهقهات، يخالطها ضجيج الأطفال، الذين خرجوا لتوّهم لاستراحة الحصّة المسائية. يمارسون نشاطهم بالقفز والجري.

هو في تلك اللّحظة لا يزال يجلس، وهو يرسم بعينيه فضاء المدينة الذي يمتدّ إلى أفق الجبل، يحاذي الغابة المتبقية. التي بدت أنها لم تعد كما كانت.

تتراءى له بصمات فوضويّة، من بناء عشوائي. يرتسم على الهضاب المحاذية لجبل درسه. تزاحم أشجار الصّنوبر والعرعار. في مساحات اجتثت بعض منها، وركّبت عوضها بيوت قصديرية صدئة. وإسمنتية بطلاء أبيض أو أحمر.

ساحة المدرسة، تعج بأطفال تتقارب أعمارهم، لكن سنّهم، كان يختلف حسب سنواتهم الدّراسية. هو لا يزال في وضع كان يوحي لمن ينظر إليه، بأنّه ربّما يكون قد تجمّد في مكانه. لا يحرّك ساكناً. غدا عينيه وحدها، كانت ترمش من حين للآخر. عبر لحظات متقطّعة. وكان عليه أن يترك تنفسه يستقبل هواء، ليطرد آخر.

يستدرك غفوته على صوت الجرس، الذي كان يدقّ بقوّة. فيعتدل في جلسته، ويقف، ثمّ يعلّق الكرسي بين يديه، ويتّجه به إلى حجرة الدّرس. التّلاميذ يصطفون في صفّين واحد من البنات والآخر من الذّكور.

أمام باب الخروج، كانت خطواته، تبدو متعثّرة وبطيئة. وكان المساء قد أرخى سدائل اللّيل، فتحوّل لون المدينة إلى البرتقاليّ الدّاكن، وواجهات المتاجر، تعكس ألوان الأضواء، وبعض من أضوائها ينطفئ. فرصة للّذين يحبّون التّلصّص.

يندفع إلى واجهة إحدى المتاجر، التي تعرض بعضا من الملابس المستوردة، مندهشا كان وهو يقرأ البطاقات التي تكتب عليها الأثمنة، كانت أثمة باهظة.
موعد ه مع الكتابة، يكون وقت حضوره إلى البيت، حينما يتروي داخل غرفته، ويجلس إلى مكتبه، يدوّن كلّ المشاهد بتفاصيلها. يدوّها بسرعة، وهو يتذكّر مشهد تلك المرأة، التي كانت تقبع قرب قوس بباب التّوت، حينما مرّ من هناك، كان منظرها البائس، يوحي بأها امرأة فقيرة، وهي تلفّ الصّبيّ، في خرقة بالية وتحمله بين يديها دون حراك. نظراها إلى المارين، تنمشها سخرية وشماتة. فقد كان معظمهم لا يعيروها أدنى اهتمام. رغم أنّها كانت تظلّ تمدّ إليهم يدها في تذلّل. ورأس الصّبي يكاد يلامس الأرض. فتحميه بكلّ قوّة من أحذيتهم المسرعة، التي كانت تضرب الأرض بقوّة. وكأن أصحاها في عجلة لا تكاد تنتهي.
يستوقفه مشهدها، ومضى يتأمّلها في شده. يغرف من أثاث اللّحظة، وكأنّه يبحث لها عن وصف. كأقصوصة بدت، وكعنوان كان المشهد. الأقصوصة الأخيرة التي انتهى من كتابتها.
اللّيل يلفّ المدينة، ويخنق أنفاسها. وسكون قاتل يطبق اللّحظة، والسّماء مضت تجود بقطرات، تعلن وصول الخريف.
بدا يتثاءب، وكأنّ النوم يغازل جفونه. يطلّ من نافذة غرفته، وهو متوجّه إلى فراشه. كان قد أكمل كتابة القصّة. وكان عنواها :
– امرأة ذابلة.

فـراشـات مـن الأزرق

المعطف ذو اللون الأزرق الدّاكن. يدثّر جسدها الممشوق، فيزيدها جمالاً وبهاءً. يذكّره كلمّا التقيا، بزرقة البحر الممزوجة بزرقة السماء الصّافية المنعكسة عبر المدى الذي يظلّ يراقبه هناك. فتتراءى له في عينيها الزّرقاوتين فراشات تتطاير، ثم تحوم حول نور ينبعث بسمات، على شفتيها العسليتين.

تتوجّه في نفس الميعاد، ككلّ صباح. نحو تلك النّاحية، التي يكون قد أتى هو منها لتوّه. تتقاطع النظرات. نظراتهما.

كان يبدو مشغول البال، وهو يسير في وجهته. يفكّر بإلحاح في إتمام روايته، التي عكف على كتابتها، منذ بداية الخريف. خريف هذه السّنة. لذا لم يكن يعير أدنى اهتمام لما يدور حوله. ولا لتلك النّظرات التي كانت ترسلها نحوه. غير أنّ شيئاً ما كان يجذبه إليها، و لم يكن يعرف سببه. فيسترق نظرة، وكأنه يحاول أن يمعن النظر من خلالها إليها، ثم كان يعدل عن ذلك آخر الأمر.

كان يلمح فيها شيئاً، يراه يرتسم كخيط وهن، يربط بينها والمسار السّردي للرّواية. ما كان يجعله يرسم صورة لها في خياله. مرّات ومرّات..

- أتكون البطلة التي تُبنى عليها شخصية الرّواية..؟

- أم حدس لخواطر، كانت تجول في خياله..؟ تتجلى ربّما من اهتمام واحد يتقاسمانه.. أو ربمّا تكون الصورة التي يحوم طيفها أمام عينيه.. ؟

لم يكن قد أدرك ما السرّ في كل ذلك، تعب الأيام يشغله عن التّفكير أكثر، في سرّ تقاطع نظراتهما، والذي يحدث كلّما التقيا صباحاَ...

كان همّه الوحيد ومبتغاه، هو أن يتمم كتابة الرّواية، قبل حلول الصّيف، موعد سفره إلى اشبيليا، سفر يحثّه كثيراً، على أن يتمم الرّواية. ليضعها بين يديّ الناشر هناك.

لقد باتت أيام الصّيف، تزحف مسرعة. والبناء السّردي للرّواية، يوشك على الانتهاء. ونشوة الفرح والتّفوّق بدت قريبة منه، أحسها تشع في عينيه وترفرف فوق أحاسيسه.

ذات صباح، و لم يكن كغيره من الصّباحات. المطار يغصّ بالمسافرين، وأزيز الطّائرات يملأ أسماعنا. وبداية الصّيف تغري بالمتعة. كان يخطو إلى ممرّ العبور، و لم يتبق غير لحظات قليلة وتقلع الطّائرة. بباب الممرّ تتقاطع نظراته، مع نظرات سيّدة، لم تكن غير تلك التي كان يلقاها كلّ صباح، وهو في طريقه إلى العمل.صدفة لم تكن متوقّعة.

ختم على جواز السّفر. ثمّ صعد الطّائرة، كانت هي من تجاور مقعده، تتقاطع الكلمات وتلتقي، فيعلم منها أنّها أستاذة مادة تاريخ الفنّ، بمعهد الفنون الجميلة. هي الآن في رحلة عمل. لقد طلبوا منها إعداد لوحة غلاف، لرواية أحد الكتاب، لكنّها لم تكن تعرفه. ولا أن سبق لها أن تشرّفت بمعرفته.. قبلت الدّعوة، وأتمت ذلك، وكان تحت إلحاح صديق لها، يعمل بإحدى دور النّشر.

هي الآن ذاهبة إلى دار النّشر لتودع لوحتها هناك. فعلت ذلك مباشرة بعد أن حطّت الطائرة بالمطار. ودّعته دون أن يعرف منها مكان إقامتها. في اليوم التالي من سفره، كان هو الآخر يودع روايته في دار النشر. ويعود إلى أرض الوطن.

بعد مرور ثلاثة شهور كاملة، صدرت الرّواية، شيء مدهش، وهو يتطلّع إلى لوحة الغلاف. كانت لوحة غاية في الرّوعة. لوحة يتمثّل فيها اللّون الأزرق، بكل درجاته، وبأشكال تتداخل، فتنشئ مشهداً لفراشات، تحوم حول خيط شعاع ذهبي، ينبعث من نقطة ضوء، بين ظلال وافرة، في مساء خريفي.

لم يكن يعلم أنها لوحتها. حتى ذلك اليوم وهو يحضر المعرض السّنوي لتشكيلي المدينة، كانت اللّوحة معلّقة في بهو المعرض، وكانت هي من تقف أمامها بإجلال، تشرح للزوار تركيبها ومكوّناتها التّشكيلية...

بابا مسعود

لم أتذكّر يوماً، أنّه تأخّر فيه عن موعد حضوره. و لم يكن ذلك من عادته. الموعد الذي كان يحضر فيه إلى الحيّ، هو نفس الموعد الذي اعتاد عليه منذ أكثر من عشرين سنة.
بابا مسعود، هو ذاك الرّجل الطّيّب الودود. يطلع علينا كلّ صباح، ببزّته الرّسمية الزّرقاء. والقبّعة الموضوعة فوق رأسه بعناية. يوحي لك ذلك كلّه، بأن للرّجل تاريخاً عريقاً. إنّه من رجال المقاومة، الذين حاربوا الاستعمار بضراوة. وحصل بذلك على جائزة الشّرف. شرف الدّفاع عن الوطن. بات يحتفظ بسلاحه الذّي استعمله ضدّ المستعمر، إلى أواخر حياته.
تعرّفت عليه، منذ بدأت قدماي تتخطى عتبة الدّار. لألعب مع أقراني في الحي. بقامته المتوسّطة وبشعر مصفف، تنقره شعيرات بيضاء. تهبه همّة ووقارا. وبنية قويّة كانت تسمح له أن يتحمّل ثقل المحفظة المحمّلة بالرّسائل الكثيرة. رسائل من مدن المملكة وقد توجد من بينها ما هي من خارج الوطن.
كان بابا مسعود، يدرك تماماَ. ثقل ما تحمله الأخبار المكتوبة فيها على نفوس أصحابها. يقرأ ذلك من قسمات وجوههم، وهم يستلّمونها منه.
إنّ قدومه المتكرّر، إلى الحيّ كلّ صباح، هو فأل خير على أهله. رسائل تحمل أخباراَ سارة، وقد يوجد منها ما يحمل غير ذلك. لكن رغم كل هذا فقد كانت البسمة لا تفارق محيّاه وهو يقدّم كلّ الرّسائل لأصحابها. وتلك الرّزانة المعهودة فيه، والوقار الذي كان يبدو عليه، وهو يقوم بتوزيع الرّسائل المكدّسة داخل المحفظة التي يعلّقها على كتفه الأيسر. يطوف بها بين دروب الحيّ، التي تدخل في نطاق دائرة توزيعه. تبدو ثقيلة،إنه يفاجئني، وأنا أراه ينتقل بها من دار لدار، ومن درب لدرب، يتحرّك بنشاط وهو يفعل ذلك. فأعمد إلى مساءلته.
ـــــ بابا مسعود هل حقيبتك ثقيلة..؟

يحدجني بنظرة حنون، وهو يدرك مدى فضولي الطفو لي، فيكتفي بابتسامة عريضة يرسمها على محياه دون أن ينبس بكلمة. أتبعه فإذا بي أنتبه على تلك الطّرقات المنمّقة، بوزن موسيقي، تشنّف أسماعنا، وأسماع كل المارّة. وحتى أولائك القاعدون في بيوتهم. الطّرقات التي يطرقها على أبواب بيوت الحيّ، طرقات تعرفها كلّ نساء حيّنا ونساء الأحياء المجاورة، تحثّك على الخروج لتستلم رسالتك. وتجعلنا نهرول وراءه نحن الصّغار، وقد كوّنا حوله جماعة. نتبعه إلى كلّ درب يحلّ به، ونقف أمام كلّ الأبواب التي يقف بها. نستبقه أحياناً، ونحن نحاول أن نقلّده في عمله. كان يتقبّل منّا ذلك، دون اكتراث أوغيض. وهو يوزّع رسائل تحمل من الأسرار والأخبار ما تحمل، في محفظته المكدّسة بها. وقد تعود على حملها.

إنّ انتظارنا له، انتظار يملأه الفرح والحبور. كان يحدث ذلك كلّ مرّة، إلا مرة واحدة، ونحن ننتظر نتيجة آخر السنة. لحظة كنّا نتحاشاه عمداً، و لم يكن يعنينا فيها حضوره. إن الكثيرين منّا، يتعمّدون أن لا يروه، أو يلتقوا به. وكنت واحداً من هؤلاء.

يصل إلى علمنا، أن رسائل نتائج امتحان آخر السّنة، هي في طريقها لتوزّع علينا. فيكون حضوره إلى الحي في هذه الأيام ثقيلاً على نفوس بعضنا، كلما شاهدناه أو سمعنا طرقاته على الأبواب. يعلم الكثيرون منّا أنّ نقطة راسبة في مادّة الإنشاء، ستسبب له الرّسوب. وحضور بابا مسعود بنتيجة الامتحان سيثبت ذلك. وسيضع الكثيرين منّا أمام الأمر الواقع، وسيعلم الآباء بذلك. وهذا ما كان يخيفنا.

نتمنّى لو كنّا نستطيع منعه من الحضور، لكنّنا ندرك بأن ذلك من ضروب المستحيل. أكتفي بالتّلصّص عليه، من فوق السّطوح. وأظلّ أراقبه، وأراقب تحرّكاته من بيت لبيت. وأنا ساكن دون حراك...

تمرّ الأيام، ويشيخ بابا مسعود، ونفتقد حضوره إلى حيّنا. فلم يعد يزوره، و لم تعد طرقاته على الأبواب تملأ أسماعنا، لم يترك المدينة، و لم يغادرها...

بات يقضي وقته في مقهى النّخيل. بساحة الفدّان الفسيحة. يشرب من كؤوس الشّاي المنعنع، بزهر الأرنج واللويزة، وعشبه الشّيبة، يتملى بشجر النّخيل الباسق. يهشّ على سرب النّحل المجتمع على كأس الشّاي. كلّما أراد أن يرشف منه رشفة...

***